السؤال المهم: لماذا التركيز على العلم التجريبي لهذا العصر؟

العصر الذي نعيشه هو عصر المكتشفات الحديثة المتسارعة بشكل ملحوظ، وقد حاول البعض الاستفادة من العلم التجريبي في إثبات مسائل الدين، وهذا ما يعرف بالتفسير العلمي الذي كان الخلاف حوله مشهورًا ومعروفًا بين مؤيد له، وبين معارض له، وهو مقدمة للإعجاز العلمي، و مفاده أن تتوافق معاني الآيات التي أشارت إلى الكون مع العلوم التجريبية، فيؤول معنى الآيات إلى النظريات العلمية.

أسباب الفتنة بالعلم التجريبي، منها:

- الشعور بالهزيمة النفسية أمام الغرب المتقدم ماديًا بظاهر علوم الحياة الدنيا.
- غياب الاستعلاء بالإيمان واليقين من واقع أمة الإسلام، واهتزاز الثقة بدلائل العقيدة؛ لأنها في نظر بعض الناس تقليدية.
- إغفال كنوز الكتاب والسنة الصحيحة والتي بها يتحقق الاكتفاء المنهجي.
- التأثر بالمناهج الغربية، واستخدام المنهج الإسقاطي والتلفيقي، مع تجاهل إخفاق الفكر المادي في تفسير وفهم الظواهر الثلاث الكون والحياة والعقل.

ولقد غاب عن هؤلاء القوم المفتونين بالعلم التجريبي الذين بدؤوا بأسلمته أنّ المكتشفات العلمية لم تصل إلى النهاية، لعدم الإحاطة بخفايا العلوم التجريبية وهذا ما يصرح به علماء الغرب الذين أحرزوا التقدم فيه، ولكل عصر مكتشفاته، فما وصل إليه عصر من العلوم يكون أقصى ما وصل إليه من العلم في ذلك العصر؛ ولكنه ليس أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني.

وهكذا كان اتساع نطاق المعلومات هو بنفسه اتساعًا لنطاق المجهولات.... فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة يقطعها من عالم الشهادة مراحل أخرى من عالم الغيب، وصدق القرآن حين يقول: {وَمَا أوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلا قلِيلاً } [الإسراء: ٨٥]

العلاقة بين العلم والدين: من الضرورة بمكان أن نبيِّن العلاقة بين العلم والدين؟!

العلاقة بين العلم والدين الإسلامي، علاقة تكاملية متناسقة لا صراع ولا تناقض ولا تعارض بينهما؛ لأن الدين يشتمل على حقائق أساسية متصلة بالعلم؛ فمن المحال حصر العلم في العلم التجريبي فقط ووضعه مقابل الدين.

إن وضع الدين مقابل العلم التجريبي منهج غير صحيح؛ لأن الدين الحق يعترف بالمنهج العلمي التجريبي وسيلةً للمعرفة، ولكنه ليس وسيلةً لكل المعارف، ومن يعتمد على المعرفة الحسية ويرفض المعرفة العقلية هو يرفضها بعقله لا بحسه.

مـا سـبب مقابلـة العلـم التجريبـي بالديـن؟

في ظروف كنسية غيبت العقل والعلم، صوِّرت العلاقة بين العلـم والعقل والدين على أنها علاقة تناقض وصراع، ففي حين أن الدين غير قابل للتغير فالعلم قابل للتغير؛ فالدين كما يزعمون من أخطر معوّقات التحضر والتطور.

ولا تعارض بين العلم والدين؛ لأن الله وحده خالق الكـون ومنـزل الكتب وباعث الرسل.

نشأ العلم التجريبي في الغرب نتيجة ثورة علمية على طغيان الكنيسة الذي كان يستتر برداء الدين في العصور الوسطى ليهيمن على البشرية، وتحافظ الكنيسة على قدسيتها، فأخذت تحارب العلم والعلماء باسم الدين، وهنا قامت ثورة العقل الأوربي (حركة الإصلاح البروستانتي)، فعارضوا الطقوس الدينية، وسلطة البابا المطلقة، ليتخلصوا من حجر العثرة الذي كان يقف أمام البحث العلمي المستقل القائم على البحث والتجربة.

وبدأوا الاهتمام بإحياء الآداب اليونانية والرومانية التي اهتمت بالإنسانيات، ورد القيم إلى العقل لا الدين، وبدأ الاهتمام كذلك بالطبيعة الحافلة بالحقائق، وانبعثت صيحة روجن بيكون بتأكيد أهمية العلم التجريبي.

فهذا الاهتمام البالغ بالعلم التجريبي في عصر النهضة هو رد فعل للعصور الوسطى.

وبعد التحرر من قيود الكنيسة التي فرضتها على العقول، نُحِّيَّ الدين عن الفكر الإنساني.

ما مدى ملاءمة العلم مع الدين مع الكتاب المقدس؟

فرضت الكنيسة آراءً علمية غير قابلة للنقاش قهرًا، حيث احتوى الكتاب المقدس آراءً علميّةً دسها بعض رجال الدين أثبت العلم الحديث عدم صحتها.

يقول موريس بوكاي: "وجدت في سفر التكوين وحده مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا"؛ فاحتدمت حدة الصراع المفتعل بين العلم والدين، بسبب هذا التناقض.

في هذه الأثناء احتك جيل من أبناء المسلمين بالغرب ففُتنوا بالمنهج التجريبي، مع شعورهم بالهزيمة النفسية إزاء تقدم الغرب، نتج عن هذا إنكار كثير من أمور الدين التي ترتكز على الغيب، كمسألة النبوءات وما يتعلق بآياتهم؛ فظهر التأويل وفقًا للعلوم التجريبية وأعتُمِد على المنهج النقدي لكل الحقائق الدينية.

وتناسى بعض المبهورين بحضارة الغرب المادية، أنّ الدين الإسلامي لايرفض الحقائق العلمية وليس بينهما تعارض، بل هو يهتم بالعقل ويلفت النظر إلى حقائق الكون ليزداد إيمانه بربه.

فالعلاقة بين العلم والدين في الأدبيات الإسلامية تختلف تمامًا عنه في الأدبيات الغربية.

إنَّ الاستدلال بالعلم التجريبي على صدق نبوءة النبي ﷺ طريقه طويل شاق عسر، ودلالته ظنية محتملة مضطربة مثل: دليل الحدوث، ومما لا شك فيه أن تطويل طرق الاستدلال من غير حاجة مذموم، وهو على خلاف الطريقة الشرعية في بناء الأدلة، كما أنه يتنافى مع الوضوح والبيان الذي اتسمت به أدلة النبوءة مع وفرة الدلائل والبراهين على صدق النبوءة.

مـاذا لـو اختفـت المكتشـفات العلميـة الحديثة؟! أو لم تظهر؟! هل هذا يتفـق مع سمات أدلـة النبـوءة التـي لا تقتصـر عـلى زمـن دون آخـر، بـل هـي مسـتمرة باقية؟!

المكتشفات العلمية قد تهمل حقائق هامة إهمالاً تامًا، لأن العقول تميل بطبيعتها إلى نبذ الأشياء التي لا تتلاءم مع إطار معتقدات العصر الحديث، فالعلماء بشر قبل كل شيء، وهم غارقون في أفكار بيئتهم وعصرهم، وهم لم يهتموا بالتكوين العقلي للإنسان ولا بمطالبه الدينية.

وعليه فإن استنساخ المنهج الغربي ومحاولة تطبيقه وأسلمته على العلوم الدينية لن ينتج لنا منهجًا معرفيًا متكاملاً، بل سينتج لنا منهجًا ملفقًا يتسم بالخداج، فالحقول الدلالية متباينة بين دلائل العلم التجريبي ودلائل صدق النبوءة، فالاستدلال بالمكتشفات العلمية الحديثة يدل صراحة على وجود الله وإمكان البعث، وهذا ما نبه إليه القرآن، ولا يدل مباشرة على صدق نبوءة النبي ﷺ.

فالقيام بنقل الأفكار دون أن نمعن النظر في المنظومة الفكرية المتكاملة بمضامينها الفلسفية، أفقد المقدرة على الربط بين الأفكار، وتطوير موقف نقدي اتجاهها، وهذا قصور في الفكر التحليلي العربي.

إن المنطلقات الفكرية تتشابه كثيرًا بين المتكلمين الذين فتنوا بمنطق اليونان، وبين المعاصرين الذين فتنوا بالعلم التجريبي، فكلاهما يستند على العقل في تأويله، والرد على هؤلاء يكون بأنه ليس هناك تعارض بين النقل ولا العقل ولا العلم، فوحدة مصدرها تنفي التناقض عنها، فمنزل النقل هو خالق للعقل موجد للكون والعلم باعث للأنبياء، وعدم المخالفة بين الحقائق الكونية والعلمية، وما أخبر به الأنبياء هو دليل على صدق نبوءتهم، لا أن ما جاء به الأنبياء يوافق الحقائق الكونية والعلمية.

وعدم مخالفة ما جاء به النبي ﷺ للعقل والفطرة والأنبياء السابقين و للحقائق العلمية والكونية هو أحد الأدلة التي تبرهن على صدق نبوءة النبي ﷺ.

الفصل الخامس

دلالة كثرة الغيوب التي أخبر بها النبي ﷺ

المبحث الأول

الإخبار عن أمور غيبية مستقبلية

حقيقة النبوة هي الإخبار عن الغيب ومن لم يخبر بالغيب لا يكون نبيًا، وكان الأنبياء يخبرون عن أمور غيبية جملة وتفصيلاً ، منها الغيبيات المستقبلية، وهو أحد الأدلة المشتركة بينهم، **ومما أخبروا به:**

إخبار عيسى عليه السلام لقومه بما يأكلون ويدخرون مما لم يعاينه ويشاهده، وهو أمر غيبي قال الله تعالى عنه: {وَأنَبِّئُكُم بمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتكُمْ إنَّ فِي ذلِك لآيَة لكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}. [آل عمران: ٤٩]

إخبار يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن بما يأتيهما، قال الله تعالى: {قالَ لاَ يَأتِيكُمَا طَعَام تُرْزَقانِهِ إلاَّ نَبَّأتكُمَا بِتَأوِيلِهِ قبْلَ أن يَأتِيكُمَا ذلِكُمَا مِمَّا عَلـَّمَنِي رَبِّي إنِّي تَرَكْتُ مِلة قوْم لا يُؤْمِنُونَ باللّهِ وَهُم بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون}.[يوسف:٣٧]

إخبار جميع الأنبياء عن فتنة المسيح الدجال، يقول النبي ﷺ: (ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب) أخرجه البخاري ومسلم.

إخبار الأنبياء السابقين وبشارتهم بنبوءة محمد قال الله تعالى:{وَإِذْ أخَذَ اللَّهُ ميثاق النَّبيِّينَ لَمَا آتيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمةٍ ثمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّق لمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قالَ أأقرَرْتُمْ وَأخَذتمْ عَلَى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أقرَرْنَا قالَ فاشْهَدُوا وَأنا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}. [آل عمران: ٨١]

إخبار النبي ﷺ عن الغيوب الكثيرة التي وقعت في المستقبل كما أخبر، **ومما ورد في القرآن من ذلك:**

- إخباره أنه سيُغلب الكفار المكذبين بنبوءته، قال تعالى: {قل للذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْس المِهَادُ } [آل عمران: ١٢].
- إخباره أن الروم ستغلِب، قال تعالى: {غُلِبَتِ الرُّومُ } [الروم: ٢].
- إخباره عن تحقق رؤياه بدخول مكة، قال تعالى: {لَقَدْ صَدَق اللَّهُ رَسولَهُ الرُّؤيا بالحَقِّ} [الفتح: ٢٧].

- إخباره عن هلاك رؤوس الكفر، مثل أبو لهب وزوجته، والوليد بن المغيرة، قال تعالى: {تبَّت يدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد:٢].

- إخباره بما سيكون من العاقبة والنصرة له ولمن آمن به وصدقه، والنصرة والعاقبة تكون بالحسي المشاهد، المتمثل في نجاة الأنبياء وأتباعهم، وهلاك من كذبهم. وتكون بالنصر المعنوي بظهور الحجج والبراهين.

- إخباره عن اليهود بأنهم لن يتمنوا الموت، قال الله تعالى: {قلْ إِن كَانتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاس فتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٩٤].

- إخباره بحفظ القرآن الكريم، فالواقع إلى يومنا هذا يصدق ذلك، قال الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر:٩].

وهذه الأمور وغيرها تدل بكثرتها وتعـددها وتحققهـا عـلى إعـلام الله تعالى للنبـي بهـا، حيـث لا يمكـن أن يتوصـل لهـا بالاكتسـاب، وهذا دليل على صدق نبوءة النبي ﷺ .